■ سوق الجوارى (Esir Pazari)

بقلم : الآنسة ج.م باردو (J.M. Pardoe)

عرض : على الصادق حسنين

فضلا عن كتابها «مدينة السلطان» (The Sultan's City) ألفت المس باردو كتابا اخر عنوانه «من آيات جمال البوسفور» (Beauties of the Bosphorus) أصدره الناصر جيورج فيرتشيو (George Virtue) - لندن - 1838 - وترجمه الى الفرنسية ل.دو بوكلا (L. De Bauclas) وأصدر الناشر فيربى (Ferrier) - باريس - 1838 - هذه الترجمة ، التى تتكون من (166) صفحة من القطع الكبير جاءت مقسمة الى (50) فصلا - عدا المقدمة والخاتمة - والتى تضم (79) نسخة من لوحات الفنان و.هـ بارتليت (W.H. Bartlett) .

فى الفصل المعنون «سوق الجوارى» تقول المؤلفة ان الخرافات التى ظلت تكتب وتروى حول هذه السوق الكائنة بعاصمة الامبراطورية العثمانية قد اتسمت بتزمت بالغ الشدة حتى انها أسهمت الى حد بعيد فى اثارة شعور بالرعب والاشمئزاز عم ارجاء القارة الاوروبية كافة .

انما هذا الامر - فى رأيها - ليس محل جدل واذ تعرب عن عدم رغبتها فى التصدى للدفاع عن نشاط تجارى يتنافى مع المبادىء الانسانية ، ترى لزاما عليها - من قبيل الانصاف للدولة التركية - ان تستنكر وتفند مانسجه خيال بعض الكتاب والفنانين من اعمال مغرضة لامعقولة تناولوا فيها هذه السوق وصوروا فيها دموعا مستذرفة من مقلتى غادة جيورجية او غانية شركسية مذعورة عزلاء قاصرة الباع على اثر اختطافها من احضان اسرتها وانتزاعها من عقر دارها بغية عرضها بعدئذ - كأنها بضاعة - على حشد من الفجار والزنادقة الافظاظ .

فلو فكر مقترفو هذه الترهات وادركوا انهم يشوهون - بصنيعهم هذا - وجه الحقيقة ويهينون امة بأسرها ، لما ترددوا لحظة عن التضحية بثمار ماخطت اقلامهم او رسمت ريشاتهم وذلك فى سبيل الالتزام بمقتضيات الحياء والصدق والانصاف .

وتذكر الكاتبة شهادة ادلى بها الدكتور وولش (Dr. Walsh) - الذى اقام سنوات عديدة بمدينة اسطانبول وتهيأ له - فى اثناء اقامته الطويلة - ان يدرس - عن كثب وبعناية - جميع مؤسسات دولة آل عثمان - والذى اورد بالصفحة الثانية من الجزء الثانى من مؤلفه «اقامتى فى القسطنطينية» من الحقائق مايبعد عنه شبهة التحيز الى الاتراك وتهمة محاباتهم - اذ تقول : « .... وحتى خارج وقت عقد الصفقات يتعين مراعاة الاحتشام الصارم فى هذه السوق التى تحتل عمارة مربعة التصميم يتوسطها صحن رحيب محاط بمصطبة مرتفعة تقف عليها الاماء الزنجيات . وتقع خلف المصطبة مقصورات لها نوافذ مزودة بمشربيات . ففى هذه المقصورات تقيم الجوارى البيض واللواتى اثمانهن باهظة الى ان يتم تصريفهن مع العلم بان التقيد بما تمليه اللياقة وآداب السلوك وبمستوى معين من الحشمة أمر لاتهاون فيه ابان عمليات البيع والشراء ايضا» .

هذا وتردف الآنسة باردو قائلة : «اما الاستعراضات الشنيعة التى اكد بعضهم وقوعها بالسوق فلايجوز مؤاخذة الاتراك عليها ولاتحميلهم اصرها حيث ان الدكتور وولش - الذى اثبت انه من اقل الناس رضى عن تنظيمها - قد اضفى عليها - كما لاحظنا لتونا - فضيلة الحياء والرصانة» .

وكان من شأن هذه الحقيقة ان بعثت فى نفس المؤلفة شيئا من الارتياح وذلك لان كثيرا من المواطنين الاتراك بداوا - حسب قولها - متأثرين لمثل ماذكر من افتراءات ولانها - اى المؤلفة - ارتأت - فى النهاية - انه من الانصاف والجدوى دحض شائعات لااساس لها من الصحة ، وانها لاتشك فى انه قد حدث ضرب من الالتباس بين قضية الاماء وتصور مؤلم مثير للغضب على ان محض عرض

مبلغ من المال ثمنا لمخلوق بشرى مقدر عليه ان يباع ـ كأى سلعة ـ لينم عن شيء رهيب منفر باعث على السخط .

ولكن باستثناء ماتقدم ـ وهو كاف تماما ـ فكان لايرتكب فى السوق ـ على حد قول المس باردو ـ مامن شأنه ان يخدش الاخلاق والاداب اذ ماكان يسمح فيها ـ حقيقة ـ بالحاق اية اهانة بالاماء كما لايسمح بالتحدث اليهن بمجون . وكان لهن ـ فى بعض الاحيان ـ حرية اختيار من يستأمنهن من بين المشترين مدركات تمام الادراك انه بمجرد انتمائهن الى بعض الاسر التركية يصبحن اعضاء فيها بكامل معنى الكلمة ، كما كدن يكن ـ احيانا ـ واثقات ببلوغ مقام مرموق اذا ماأحسن التصرف وسلكن سلوكا مرضيا .

وتفيد الكاتبة ان الفتيات الشركسيات والجيوجيات كان يأتى بهن اولياء امورهن فى العادة ـ الى السوق وذلك بناء على طلبهن حيث انهن يفضلن قضاء شبابهن فى رفاهية وربما فى ترف وبذخ ، على قضائه فى شظف العيش والانكباب على فلاحة الارض والاشغال المنزلية اذا بقين بديارهن فى اعالى الجبال .

ان هؤلاء المتأميات «المتطوعات» كن يمكثن فى مقصوراتهن الموصدة الابواب حيث لم يسمح برؤيتهن الا للنخاسين الجادين علما بان احتياطات صارمة كانت قائمة بالسوق لمنع الزوار العابثين وللحيلولة دون فضول افراد الجمهور الذين كثيرا ماكان يكتض صحنها بهم وحرصا على ان يسود النظام والهدوء هنالك . ومن جملة تلك الاحتياطات اقامة حراسة دائمة عند المدخل لحماية الاماء كافة عند الحاجة ولكن ذلك كان نادر الحدوث . وتسترسل المس باردو قائلة : «وفى وسط الصحن كانت تشاهد زرافات من الاماء الزنجيات قاعدات على حصائر بعضهن متربعات ضاحكات او متمازحات او منشغلات بقضم شيء من الفواكه ،

وبعضهن الاخر مستلقيات نائمات او مثقلات بالهموم عابسات حزينات كل بحسب المشاعر المختلجة فى صدرها . وماكان يحاول احد من حولهن ان ينغص عليهن عيشهن فيزيد حالهن سوءا وتعاسة . فما كان يجرؤ الاتراك قط على اتخاذ معاناة الغير او مهانته وسيلة للهو والتسلية لاعتقادهم ان مثل هذا التصرف الطائش مناقض للسليقة وسلامة العقل . ولذا كانوا يقومون ـ فى هدوء وسكينة ـ باتمام صفقاتهم المقيتة ، ثم باصطحاب من يشترون من رفيقات دونما لجوء الى العنف والقسوة فى الاستمتاع بحقوقهم فيهن» وتختتم المؤلفة بقولها : «تقع هذه السوق على مقربة من جمبرلى طاش وتشرف على مسجد عثمانية او نورعثمان البديع البنيان والمتميز بكسوته المرمرية الرائعة الناصعة البياض والمفروش بلاطه بالسجاد الفاخر البراق والذى يحتضن ركنه الشرقى محرابا يحيط به اطار مطلى بماء الذهب وغنى بالنقوش» .

واسوة بسائر مساجد عاصمة الخلافة تقريبا تظلله اشجار القيقب الجميلة منطلقة من وسط صحنه الذى تكسو بلاطه ـ هو الاخر ـ طبقة من المرمر واذ تنطلق تلك الاشجار عالية نحو السماء تمد فى كل اتجاه فروعها الكثيفة الاوراق . فالى هذا الملاذ ذى الظل الظليل والنسيم العليل كان يأوى الانسان كيما يملك سكينة نفسه ويكبح جماح المشاعر المضنية التى يكون قد ولدها فى اعماقه مشهد سوق الجوارى التى كانت لاتفصلها عن المسجد ذاته سوى مسافة يسيرة» .